المجلد 6 / العـدد: 01 (2021)، ص176- 191

قراءة في الإرهاصات الأولى للمنجز الصّوتي عند العرب

A Reading on the Precursors of Phonetic Achievementamong Arabs

ط.د. وسيمة مختاري[1]*

أ.د.عبد الجليل مرتاض [2]

[1] جامعة أبو بكر بلقايد–تلمسان (الجزائر)، Mokhtariwesima92@gmail.com

[2]جامعة أبو بكر بلقايد–تلمسان (الجزائر)، Mortadabdeljalil@yahoo.Com

[1]مخبر الدراسة التحليلية الإحصائية في العلوم الإنسانية وانجاز معجم موحد لها

تاريخ الاستلام: 2021/05/03 تاريخ القبول: 2021/05/13 تاريخ النشر: 2021/06/01

ملخص:

يروم هذا البحث تحقيق مقاصده العلمية، في مجال الصوتيات اللغوية؛ بتقديم **"قراءة في الإرهاصات الأولى للمنجز الصوتي عند العرب"**، وهذا هو موضوعه المركزي الذي سيتم التطرق فيه،أولا : إلى الجهود الصوتية في العهود القديمة.وثانيا : إلى إرهاصات الدرس الصوتي عند العرب، ببيان اثر اللحن في بروز البواكير الأولى للمنجز الصوتي، سواء عند القراء، أو الرواة،أو النحاة،أو البلاغيين.

وهذا في ضوء مقاربة منهجية مستمدة من طبيعة الموضوع نفسه،وهي مقاربة تاريخية،صوتية،وصفية،تعتمد على التحليل و التعليل، وتمتح مقبوساتها وشواهدها من مكتبة لغوية غنية بالمصادر والمراجع،قديمة و حديثة، ومعاصرة،وخصوصا في علم الأصوات؛ وهذا لاستنباط أهم الظواهر الصوتية التي أرهصت للمنجز الصوتي عند العرب، بقراءة موضوعية مبثوثة في متن البحث،وموجزة في خاتمة تضم أهم النتائج.

كلمات مفتاحية: قراءة،إرهاصات،لهجات،صوتيات،جهاز صوتي.

Abstract:

* المؤلف المرسل : وسيمة مختاري

This research seeks to attain its scientific aims in the field of phonetics by presenting a reading on the precursors of phonetic achievement among Arabs. The latter constitutes the central subject tackled in this study. Firstly, we deal with the phonological efforts in ancient times. Secondly, we examine the precursors of phonetics in the Arabic sphere by showing the effect of solecismon the emergence of the first indicators of phonetic acheivment__be it among reciters, narrators, grammarians, or rhetoricians.

All in light of a methodological approach that stems from the nature of the subject itself.

This approach is historical, phonological, descriptive and is based on analysis and justification. The archives and testimonies come from a linguistic library rich in resources and references old, modern, and contemporary- particularly in phonetics. This particular inference bestowed upon the phonetic phenomena that paved the way for phonetic achievement among Arabs, an objective reading that is evident throughout the research, and summarized in the conclusion, which contains the most important results.
Keywords: Reading; Precursors; Dialects; Phonetics; Phonological System.

1. الجهود الصّوتيّة في العهود القديمة:

لا يختلف باحثان لغويّان في علم الأصوات أن المنجز الصّوتي ممتدّ الجذور في التّراث اللّغوي الإنساني، يعود إلى العهود الحضاريّة القديمة، كالعهد الهندي، واليوناني، والمصري، والسّرياني، والعبريّ، والصّيني. بل إنّ أوّل نواة لهذا المنجز إنّما وُلدت مع أوّل صوتٍ أطلقه الإنسان، وهو يخرج من بطن أمّه إلى أن قيّض الله له علماء وباحثين يُخرجونه في ثوب ظواهر ومصطلحات، أخذت، فيما بعد؛ بحكم التّراكم والتطوّر صفة الاستقلاليّة، بعلمٍ هو "**علم الأصوات**"، وبتخصّصٍ هو "**الصّوتيّات**".

ونشأ هذا المنجز الصّوتي، بإرهاصاته الأولى، في أحضان الدّراسات اللّغوية القديمة التي تعود إلى الهنود القدامى في لغتهم "**السّنسكريتيّة**" التي ظهرت حولها دراسات دقيقة، ومنها الدّرس الصّوتي الذي

عرّف الصّوت المفرد، بعلله وسواكنه، وِفق مخارجه، واهتمّ بالمقاطع، ووضع قواعد النّبر. ويرى العالم الإنجليزي "**فيرث**" بأنّ الفضل في نشأة مدرسة الأصوات الإنجليزيّة يرجع إلى ما قدّمه "**وليم جونز**" من معلومات عن الجهود النّحويّة والصّوتيّة عند الهنود (احمد، 1982، صفحة 57).

وكان للفلاسفة وعلماء اللّغة في اليونان إسهامٌ في المنجز الصّوتي الذي غلب عليه الطّابع الفلسفي و"**الشّوفيني**"، انطلاقاً من اعتدادهم بقيمة لغتهم، وعدّها من أشرف اللّغات، وأنّ سواها لا يعدو أن يكون نقيق ضفادع. (شاهين، 1980، صفحة 39) وصنّفوا الأصوات إلى صامتة وصائتة، بحسب موضع النّطق ومخارج الحروف (فضل، 2013، صفحة 18)، واختلفوا في مسألة أصل اللّغات، ونشأتها، وطبيعتها، هل هي ظاهرة طبيعيّة (توقيفيّة) كما يراها أفلاطون؟ أم ظاهرة اجتماعيّة (اصطلاحيّة) كما يراها أرسطو؟ وهذا الجدل الفلسفي اللّغوي هو الذي أفضى إلى بروز نظريتي التّوقيف والاصطلاح (خرما، 1978، صفحة 96).

أمّا المنجز الصّوتي في "**العهد المصري القديم**"، فقد كان مستمدّاً من الجهود الإغريقيّة التي انكبّت على دراسة الأعمال الإبداعيّة القديمة في الإسكندريّة. وجاء الدّرس الصّوتي مبثوثاً في ثنايا الدّراسة المعجميّة التي ازدهرت بعد المسيحيّة، ومنها معجم (**Hesychiues**) في اللّغات المحلّية (احمد، الصفحات 62-63).

وأفاد "**السريان**" ممّا ترجموه من أعمالٍ نحويّةٍ يونانيّةٍ إلى السّريانية، بحكم الجوار، والتّواصل، والتّأثّر وظهر منهم النّحوي **يوسف الأهوازي** (**ت 580م**) الذي كتب رسالة في النّحو، وترجم من اليونانيّة كتاب: الصّناعة النّحويّة، ثمّ **يعقوب الرهاوي** (**ت 708م**)، وهو أوّل من وضع نحواً شاملاً، وقواعد اللّغة السّريانية مبنيّة على النّحو اليوناني، ثمّ جاء **حنين بن إسحاق** (**ت 876م**)، ومن كتبه: النّحو السّرياني، والمعجم السّرياني، ورسالة عن المترادفات (فضل، صفحة 19).

أمّا "**العبرانيّون**"، فلم ينهضوا بالدّرس اللّغوي والصّوتي إلاّ بعد احتكاكهم بالمسلمين، وخشيتهم من موت لغتهم في ظلّ الانتشار الواسع للّغة العربيّة، والاهتمام البالغ بتعلّمها خدمة للقرآن والدّين. وجاء المنجز الصّوتي العبري متفرّقاً في تضاعيف بعض الكتب المعجميّة والصّوتيّة، كمعجم اللّغة العربيّة بالتّرتيب الهجائي "**لسعيد القيومي**" مع إضافة ترجمةٍ عربيّةٍ للألفاظ، وتسميته باللّغة العربيّة "**كتاب الشّعر**"، وله أيضا جهد واضح في الصّوتيّات، هو "**شرح كتابة الخليقة**" في الأصوات الحلقية، والتّغيّرات النّطقيّة. وألّف "**داود بن إبراهيم**" المراكشي معجماً للكلمات العبريّة، ووضع **مناحيم بن سروق القرطبي** (**ت**

970م) معجماً عبريّاً بالتّرتيب الهجائي، **ولأبي الوليد بن جناح القرطبي** كتب ورسائل عدّة، منها: **"كتاب الأصول"**، وهو معجم عبري باللّغة العربيّة، ورسالة خاصّة بالأصوات وأصول الكلمات، وألّف **أبو الفرج هارون** كتاباً من ثمانية أبواب، أطلق عليه **"الشّامل في الأصول والفروع للّغة العبريّة"** (احمد، الصفحات 65-72).

ولم يدّخر الصّينيّون القدامى جهداً في التّأسيس للمنجز اللّغوي والصّوتي وإثرائه، حتّى إنّ هناك من يعدّهم في المرتبة الثّانيّة بعد العرب والمسلمين من حيث غزارة التّأليف اللّغوي (احمد، الصفحات 65-72)، وخصوصا في الدّراسات المعجميّة والصّوتيّة التي كان من بواكيرها معجم "**شوفان Show Wan**" لكاتبه "**هوشن Hushin**"، واستطاع، بعد ذلك "**هوفاين Hufa Yen**" أن يقدّم نسقاً جديداً للمعجم الصّيني، رتّب فيه الكلمات ترتيباً صوتيّاً، بحسب مخارجها في النّطق. ويعود الفضل في هذا المنجز الصّوتي الصّيني إلى الهنود الذين نقلوا علومهم إلى الصّين بوساطة الرّهبان البوذيّين (شاهين، صفحة 39).

ويتّضح ممّا سبق، أنّ إرهاصات المنجز الصّوتي في العهود الحضاريّة القديمة، كانت مستمدّة من لغاتهم القديمة، اعتماداً على النّطق، والمشافهة، والخبرة السّماعيّة، والدّراسة المعجميّة، لاستنباط الظّواهر الصّوتيّة، وتصنيفها إلى صامتة وصائتة، ومهموسة ومجهورة، مع تحديد مواضع النّطق ومخارج الحروف. وتشكّل هذه الظّواهر الصّوتيّة مجتمعةً، من الوجهة النّظريّة، القاعدة الأساسيّة للمدارس الصّوتيّة الغربيّة والعربيّة، على الرّغم من اختلاف اللّغات.

2. إرهاصات الدّرس الصّوتي عند العرب القدماء:

2 .1.أثر اللّحن في ظهور المنجز الصّوتي:

يتّفق معظم اللّغويين العرب القدامى، وعلى رأسهم علماء الأصوات والقراءات على أنّ **"اللّحن"**، كان من أهمّ العوامل التي أدّت إلى ظهور البواكير الأولى للمنجز الصّوتي عند العرب، وكان لا بدّ من بيانه، والتنبيه عليه، لتجنّبه، وحماية اللّغة العربيّة من الزّلل اللّساني والصّوتي.

وقد بدا هذا "**اللّحن**" واضحاً في منطوق بعض الأمم، والأقوام التي دخلت الإسلام، واندمجت في الحضارة العربيّة الإسلاميّة؛ هذه الحضارة التي أحدثت تغييراً جذرياً في العادات، والتّقاليد، والمفاهيم، وحتى في اللّسان الذي كان عند العربي سليماً بالسّليقة، وهذا ما يؤكّده **ابن الأثير** (**ت 630 هـ**)، بقوله: **"كان اللّسان العربي عندهم صحيحاً محروساً، لا يتداخله الخلل، ولا يتطرّق إليه الزّلل، إلى أن فتحت**

الأمصار، وخالط العرب غير جنسهم ... فاختلطت الفرق وامتزجت الألسن" (الاثير، 1963، صفحة 5).

ويبيّن هذا الكلام أنّ اللّسان العربي، كان ينطق طبعاً وسجيّة دون أن يعتوره خللٌ أو خطأٌ. ولم يكن اللّحن معروفاً عند العرب إلى أن بدأ الاختلاط مع الأعاجم؛ ولهذا جاء في **مقاييس اللّغة** أنّ **"اللّحن، بسكون الحاء، إمالة الكلام من جهته الصّحيحة في العربيّة، يُقال: لَحَنَ لَحْناً، وهذا عندنا من الكلام المولد، لأنّ اللّحن محدث، لم يكن في العرب العاربة الذين تكلّموا بطباعهم السّليمة"** (الحسن، د.ت، صفحة 339).

ويُفهم من هذا أنّ اللّحن هو انحراف اللّسان عن النّطق السّليم للّغة العربيّة، وخصوصا على المستوى الصّوتي، وقد لُوحظ هذا الانحراف، في البداية، عند الأعاجم الذين وجدوا صعوبةً في نطق بعض الأصوات العربيّة التي لم تكن معهودة في ألسنتهم؛ من ذلك أنّه كان يصعب عليهم إخراج أصوات الحلق، وأصوات الإطباق التي استأثرت بها أصوات اللّغة العربيّة دون سواها **"الحاء المهملة والظاء المعجمة ممّا انفردت بها العرب في لغاتها، واختصّت بها دون غيرها من أرباب اللّغات"**. (زادة، د.ت، صفحة 88)

بيد أنّ بواكير اللّحن التي أرهصت للمنجز الصّوتي العربي، بدت قبل الإسلام عند بعض العبيد الذين اختلطوا بالعرب في الجاهليّة للعمل في بيوتهم؛ فأظهرت ألسنتهم، عند النّطق، لكنات حملت صنوفاً من اللّحن، ومثال ذلك ما أثر عن سُحيم عبد بني الحسحاس الحبشي أنه كان ينطق في جاهليته (**الشّين سيناً**)، ولزمه هذا اللّحن حتى في إسلامه، بسبب لكنته الحبشيّة التي أنشد بها يوماً بيته المعروف:

فلو كنتُ ورداً لعسِقْتَنِي ولكن ربّي سانني بسواديا

يريد: (**لعشقتني، وشانني**). (الاصفهاني، 1958، صفحة 326)

ويُذكر أيضاً أنّ **"صهيب بن سنان"**، كان يلحن بتأثير من لكنته الرّوميّة؛ إذ نشأ في طفولته على سمت الرّوم في النّطق، فظهر في كلامه اللّحن، واستبدّ به، هو الآخر، حتى في إسلامه، من ذلك أنّه كان ينطق (**الحاء هاءً**)، في قوله: **"إنّك لهائن"**، يقصد: (**لحائن**)، أي: (**هالك**) (الجاحظ، 1988، صفحة 32).

هذه أمثلة تدلّ على أنّ اللّحن وُجد قبل الإسلام، وقد كان قليلاً، لا يرقى إلى الخشية على النّطق الصّوتي السّليم للّغة العربيّة؛ لأنّ الغلبة كانت للسّليقة العربيّة، حتى إذا جاء الإسلام، ألفينا في الخلافة الرّاشديّة، في عهد **عمر بن الخطّاب** رضي الله عنه أنّ **"اللّحن"** بدأت تتّسع رقعته في الوسط العربي، حتى

تناهى ذلك إلى سَمْع عمر رضي الله عنه (**ت 23 هـ**)، وكان يؤذيه سماعه لغيرته على اللّغة العربيّة، وحِرْصِهِ على سلامتها في النّطق، فيتدخّل بطريقته لتقويم الألسن من الوقوع فيه، ومثال ذلك أنّه مرّ برجلين يرميان، فقال أحدهما للآخر: (**أَسَبْتَ**)، يريد (**أَصَبْتَ**)، فأجابه عمر: **سوء اللّحن أشدّ من سوء الرّمي**". (البخاري، 1379، صفحة 304)

ومن الأخطاء الصّوتيّة هذا اللّحن الذي أخذه عمر بن الخطّاب على الشّاعر "**سُحيم الحبشي**" في ردّه على عيب بلاغي، يتعلّق بأولويّة التّقديم والتّأخير، فحين قال في قصيدة مطلعها:

عُميرةً ودّع، إنْ تجهّزت غازيا كَفَى الشّيب، والإسلام للمرء ناهيا

قال له عمر: لو قدّمت الإسلام على الشّيب لأجزتك، فردّ عليه سُحيم: ما (**سعرت**)، يقصد (**شعرت**) (الاشبيلي و ابن، 1978، صفحة 8).

وازدادت مثل هذه العيوب الصّوتيّة انتشاراً مع اتّساع رقعة الفتوحات الإسلاميّة، واختلاط العرب بالأعاجم؛ ومن صورها ما أثر عن الشّاعر "**أبي عطاء السّندي**"، في لحنٍ مثير للضّحك، حين جرّه حماد متحايلاً إلى قول ثلاث كلمات، هي: (**جرادة زجّ شيطان**)، فلمّا وصل قال: (**مرهبا مرهبا، هياكم الله**)، يريد: (**مرحبا مرحبا، حيّاكم الله**)، ثمّ أجاب: (**زرادة زز سيطان**)" (ابن قتيبة، 1366، الصفحات 652-653).

واستطاع **الجاحظ** (**ت 255هـ**)، بحكم تبحّره في علوم اللّغة، ومعرفته بعلم الأصوات، وتنقّله بين قبائل العرب، ومخالطته العجم، أن يكتشف ضروبا من اللّحن، أفضت إلى تحديد العيوب الصّوتيّة التي استبدّت ببعض الألسن، ولم تستطع الفكاك منها حتى ولو أقامت هذه الألسن سنين في بوادي القبائل العربيّة المطبوعة على نطق اللّغة العربيّة جبلّةً وسليقة، كقبائل (**تميم، وقيس، وهوزان**...)، ويسوق الجاحظ مثالاً عن "**السّندي**" الذي دأب على جعل (**الجيم زاياً**). (الجاحظ، الصفحات 72-73-161-213)

ومن ضروب اللّحن الصّوتي "**التّفخيم**" المطلق الذي ورد على لسان الأعاجم في لغاتهم، بسبب عاداتهم في النّطق التي انتقلت عدواها إلى اللّغة العربيّة، وضاق بها القرّاء العرب ذرعاً، وخصوصاً حين تسرّبت إلى القرآن الكريم، فمنعوا جوازه، وتعميم القراءة به في كلّ الأحوال؛ إذ "لا يجوز في القرآن، بل هو معدم في لغة العرب، وإنّما يوجد في لفظ عجم الفرس، ولا سيما أهل خراسان. (ابن الجزري، د.ت، صفحة 30)

وما فتئت هذه الأخطاء الصّوتيّة أن أصابت اللّسان العربي، بانتقالها من العجم إلى العرب، بسبب التّقارب الاجتماعي والاحتكاك اللّغوي، حتى إنّها تسرّبت إلى منطوق القرّاء عرباً وعجماً؛ وهذا ما بيّنه **"ابن الجوزي"** في قوله: "**إنّ أصل الخلل الوارد في ألسنة القرّاء... إطلاق التّفخيمات والتّغليظات على طريق ألفتها الطّباعات، تُلقّيت من العجم، واعتادتها النّبط، واكتسبتها بعض العرب**". (السيوطي، د.ت، صفحة 133)

وقد أدّى هذا الانتشار المقلق للّحن الصّوتي الذي أصبح حقيقةً قائمةً برأسها في الوسط العربي إلى دقّ ناقوس الخطر من علماء اللّغة، سواء كانوا نحويّين أم قرّاءً؛ وهذا للحدّ من تشويه أصوات اللّغة العربيّة في القراءة، وخصوصا في قراءة القرآن الكريم، ولهذا أخذ اللّغويّون على عاتقهم التّصدّي للزّلل الصّوتي الظّاهر الذي يستبدل صوتا بآخر، كوضع (**ت**) بدل (**د**) كـ (**التّين**) بدل (**الدّين**)، أو (**خ**) بدل (**غ**)، أو (**ظ**) بدل (**ض**) في قراءة (**المغضوب**). (ابن الجزري، صفحة 211) وواضح من أمثلة هذه العيوب الصّوتيّة، أنّها تنقل الكلمة كلّيةً من معنى إلى معنى مغاير تماماً.

2.2.الجهود الصّوتيّة عند علماء اللّغة العرب:

ولم يدّخر علماء اللّغة، قرّاءً، ورواةً، ونحاةً، وبلاغيين، جهداً في مجابهة هذا الضّرب من اللّحن الصّوتي الذي إذا ران على القراءة، فإنّه سيؤدّي حتماً إلى تقويض البناء الصّوتي للّغة العربيّة والقرآن الكريم، وإلى اختلاط معاني الألفاظ في أسماع المتلقّين وأذهانهم، حتى إنّ بعض القرّاء ليذهب إلى عدم جواز الصّلاة وراء اللّحّانين، (ابن الجزري، صفحة 211) ويرى اللّحن نوعين: أحدهما جليٌّ، وهو "**ما يعرض للّفظ ويخلّ بالمعنى أو بالإعراب**"، (الانصاري، 1980، صفحة 44) والآخر خفيّ، وهو "**ما يعرض للّفظ ولا يخلّ بالمعنى ولا بالإعراب، كترك الإخفاء... والإعراب... والغُنّة**". (الانصاري، صفحة 44) وهذا النّوع الخفيّ، لا يعرفه إلاّ علماء اللّغة وجهابذة القراءة، فمنه ما يتّصل بترك الإخفاء، والقلب، والإظهار، والإدغام... ومنه ما يرتبط بتكرير الرّاءات، وتطنين النّونات، وتغليظ اللاّمات. (مكي، 1308، الصفحات 23-24)

وعلى الرّغم من الجهود التي بذلها القرّاء لدفع اللّحن الصّوتي، حفاظاً على سلامة قراءة القرآن الكريم واللّغة العربيّة، فإنّهم وقعوا في تباينات صوتيّة، أسّست، هي الأخرى، للمنجز الصّوتي العربي في إرهاصاته الأولى. وهذا بسبب تعدّد اللّهجات العربيّة، وما انطوت عليه من فروق صوتيّة، أفضت إلى تعدّد القراءات. وقد أدرك النّبي صلّى الله عليه وسلّم هذا الاختلاف، فيسّر على القبائل العربيّة قراءة القرآن

الكريم بلهجاتهم؛ إذ كان عليه الصّلاة والسّلام "يتلو كلماته بلهجات مختلفة تيسيراً على أهل تلك القبائل (مجاهد، د.ت، صفحة 5)، كما كان يجيب الصّحابة بقوله: **"إنّ هذا القرآن أُنزِل على سبعة أحرفٍ فاقرؤوا بما شئتم"**، (القيسي، 1979، صفحة 53) ولا يُقصد هنا تحديد العدد، بل تعدّد أوجه القراءات التي يمكن قراءة القرآن بها.

ويمكن حصر هذه الاختلافات الصّوتيّة بين اللّهجات العربيّة في (**الصّوائت الطّويلة والقصيرة**)، وتتمثّل (**الطّويلة**) في اِشباع الحركة بالتّمطيط؛ وهذا ما يراه سيبويه، في قوله: **"أمّا الذين يُشبعون فيمططون، وعلامتها (واو) و (ياء)، وهذا تحكمه المشافهة"**. (سيبويه، د.ت، صفحة 202) أمّا (**القصيرة**) فتظهر في الإغراق بالحركة قليلاً نحو كسر الحرف أو فتحه في المضارع **"نحو نَسْتَعين بفتح النّون وكسرها"**. (ابن فارس، 1910، صفحة 19)

كما أظهرت (**الصّوامت**) اختلافاً واضحاً بين اللّهجات في التّصويت إلى حدّ استبدال حرف بآخر صوتاً، ودليله ما ساقه القرّاء عن بعض القبائل العربيّة المعروفة "قريش تقول: (**كُشطت**)، وقيس وتميم تقول: (**قُشطت**) **بالقاف"**. (ابن جني، 1985، صفحة 277) ويُضاف إلى هذا الاختلاف اللّهجي الصّوتي في الصّوامت، ما رواه **"السّيوطي"** (**ت 911هـ**) أنّ التّميميّين يقولون: (**لثام**)، والحجازيّين (**لفام**). (السيوطي، د.ت، صفحة 465)

وعلى الرّغم من إقرار هذه الفروق الصّوتيّة، بسبب تعدّد اللّهجات العربيّة، وإتاحة القراءة بها، غير أنّها استفحلت في قراءة القرآن الكريم إلى حدّ الخشية عليه من التّحريف، ووقوع خلافٍ وتصادمٍ بين المسلمين حول دينهم؛ وهذا ما دعا الصّحابة إلى حثّ الخليفة عثمان على كتابة مصحفٍ جامعٍ، (ابن زنجلة، 1982، صفحة 9) فكُتِبَ دون تنقيطٍ، ممّا عمّق الهوّة في تباين الأصوات، **"فاختلف النّاس في القراءة، كما اختلفوا في الأحكام"**. (مجاهد، صفحة 45)

وازدادت هذه الأصوات تبايناً، بسبب اختلاف الرّواة في قراءة القرآن الكريم، ومثال ذلك أنّ هناك من قرأ كلمة (**الصّراط**) (**بالسّين**)، وهناك من قرأها (**بالزّاي**)، وهناك من قرأها بين (**الصّاد والزّاي**) (مجاهد، الصفحات 105-106)

وقد أدرك **أبو الأسود الدّؤلي** (**ت 69 هـ**) خطورة هذا التّباين الصّوتي في القراءة بحكم خبرته السّماعيّة والنّحويّة، ومعرفته بوصف الحركات عند صدورها من مخارجها الأصليّة في جهاز النّطق، فطلب التّنقيط من راويته، في قوله: **"إذا رأيتني قد فتحتُ فمي بالحرف، فانقط نقطةً على أعلاه. وإذا**

ضممتُ فمي، فانقط نقطةً بين يدي الحرف... وإذا كسرتُ فمي، فاجعل النّقطة تحت الحرف، فإن اتبعت شيئاً من ذلك غنّةً، فاجعل النّقطة نقطتين". (اللغوي و بن علي، د.ت، صفحة 29)

وواصل تلامذة أبي الأسود جهود شيخهم في وضع النّقاط على الحروف، ومنهم **نصر بن عاصم اللّيثي (ت 89هـ)**، وهذا لحماية اللّسان العربي من اللّحن الصّوتي، وخصوصاً في النّطق ببعض الأصوات المتشابهة في الحروف، والخاليّة من أيّ علامة. (العسكري، 1908، صفحة 13)

وقد وجد النّحاة والقرّاء في هذه الفروق الصّوتيّة دافعاً مُحفّزاً على تناول هذه الظّواهر الصّوتيّة بالدّراسة، لإيجاد تعليلات موضوعيّة، وتخريجات منطقيّة، انطلاقاً من مخارج الأصوات؛ فهذا **"الفرّاء" (ت 207 هـ)**، وهو من النّحاة، يعلّل قراءة **عبد الله بن مسعود**، في قوله سبحانه وتعالى في الآية 92من سورة البقرة: **"اتَّخَتُّم العجل"**،بقوله: **"أُدغمت (الذّال) عند (التّاء)، وذلك أنّهما متناسبتان في قرب المخرج، و(الثّاء) و (الذّال) مخرجهما ثقيل، فأُنزل الإدغام بهما لثقلهما، ألا ترى أنّ مخرجهما من طرف اللّسان، وكذلك (الظّاء) تشاركهنّ في الثّقل، فما أتاك من هذه الثّلاثة الأحرف فادغم"**. (الفراء، 1955، صفحة 172)

وهذا هو الصّنيع نفسه الذي اعتمده أحد القرّاء، وهو **"ابن مجاهد" (ت 324 هـ)**، مُتبرّماً من قراءة (**مُصَيْطِر**) بالصّاد بدل السّين، ومُعلّلاً ذلك، بقوله: **"إنّما كُتبت بالصّاد ليُقرّبوها من الطّاء، لأنّ الطّاء لها تصعّد في الحنك، وهي مُطبقة، والسّين مهموسة، وهي من حروف الصّفير، فثقل عليهم أن يعمل اللّسان منخفضاً ومُستعلياً في كلمةٍ واحدةٍ، فقلبوا السّين إلى الصّاد، لأنّها مؤاخية للطّاء في الإطباق، ومناسبة للسّين في الصّفير"**. (مجاهد، صفحة 107)

ولم يفُت علماء المعاجم أهمّية الاستثمار في هذا المنجز الصّوتي ممثّلاً بالفروق الصّوتيّة التي خلّفتها اللّهجات العربيّة، ولا سيما في قراءة القرآن الكريم؛ فهذا **الخليل (ت 174 هـ)**، على سبيل المثال، يُعدّ أحد مؤسّسي الدّراسات المعجميّة والصّوتيّة، بل أقام معجمه على أساس علم الأصوات، يُؤكّد ذلك بقوله: **"بدأنا في مؤلّفنا هذا (بالعين)، وهو أقصى الحروف، ونضمّ إليه ما بعده حتّى نستوعب كلام العرب الواضح والغريب"**. (الفراهيدي، 1980، صفحة 60)

وقد أفاد الخليل من جهاز النّطق في ترتيب معجمه (العين)، بدءاً من الحلق إلى الشّفتين، معتمداً على الصّوت المفرد مجرّداً من سياقه. وهذا ما أتاح له تحديد أعضاء النّطق، وتصنيف الأصوات بحسب مخارجها، ووظائفها إلى صحيحة، وصائتة، وصامتة، ومهجورة، ومهموسة، وهو بهذا الإنجاز الصّوتي

العظيم، ينفرد بريادة الصّوتيّات العربيّة، مُمهّداً الطّريق لتلامذته، وعلى رأسهم سيبويه (عصام، 1997، صفحة 6) للتّوسّع في هذا المجال.

ومن هذا المنطلق، شرع علماء النّحو يستثمرون في الدّرس الصّوتي، مستغلّين خبرتهم النّحويّة في تفسير بعض القضايا الصّوتيّة التي كانت تعترضهم، ومن هؤلاء العلماء **"سيبويه"** (**ت 180 هـ**) الذي أسهم في إثراء المنجز الصّوتي العربي، بحكم درايته بمخارج الأصوات عموماً وأثر حروف المعجم في الإدغام خصوصاً، يقول: **"إنّما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصّفات لتعرف ما يَحْسُنُ فيه الإدغام، وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه"**. (سيبويه، د.ت، صفحة 436)

وهناك من الباحثين من يفضّل سيبويه على شيخه الخليل فيما أضافه إلى المنجز الصّوتي على المستوى المنهجي، فقد كانت طريقته أكثر تنظيماً، وشمولية، ودقّة، ووصفيّة، وواقعيّة، وبعيدة عن الافتراض والتّأويل، (الراجحي، 1997، صفحة 131) حتى إنّ كثيراً من أساليبه ومصطلحاته في الدّرس الصّوتي، ظلّت تتردّد بعده دون زيادة تذكر، (فضل، صفحة 53) وهذا دليلٌ دامغٌ على منطقيتها وصدقيتها.

ولم يقف علماء النّحو والقراءة عند حدود الإدغام، بل تجاوزوه إلى معالجة ظواهر صوتيّة أخرى، أفرزتها إشكالات لغويّة ولهجيّة، لا يمكن تفسيرها إلاّ بمقاربة صوتيّة. وهذا ما قام به أيضاً سيبويه مُفسّراً ظاهرة (**الكشكشة**) عند بني (**أسد وتميم**) حين تركوا (**الكاف**) **"وجعلوا مكانها أقرب ما يشبهها من الحروف، لأنّها مهموسة، كما أنّ الكاف مهموسة، ولم يجعلوا مكانها مهموساً من الحلق، لأنّها ليست من حروف الحلق"**. (المبرد، 1985، صفحة 371)

وهذه هي الجهود الصّوتيّة التي أرهصت للمنجز الصّوتي العربي، وكانت، في الغالب، تعتمد على الخبرة اللّغويّة والسّماعيّة لإدراك الفروق الصّوتيّة في اللّهجات العربيّة. وهذا بما يتناهى إلى سمع علماء اللّغة، نحويّين وقرّاءً، ويطلقون عليها مسمّيات، غدت بحكم الاستعمال والاطّراد مصطلحات مبثوثة في تضاعيف المصادر اللّغويّة، شكّلت مجتمعة بداية علم الأصوات. ولم تُعن بالجمع، والتّحقيق، والتّخريج، والدّراسة، وخصوصاً في القرون الثّلاثة الأولى، إلاّ في القرن الماضي، وبداية هذا القرن حتى أصبح **"علم الأصوات"** علماً قائماً برأسه، له باحثون متخصّصون فيه، وتمثّله كتب ودراسات مستقلّة خاصّة بالصّوتيّات اللّغويّة،أو المصطلحات الصّوتيّة، ناهيك عن مصادر ومراجع أخرى عامّة في اللّغويّات واللّسانيّات، لا يتّسع المجال لعرضها هنا كاملةً لكثرتها.

ويبدو أنّ أوّل من استخدم مصطلح **"علم الأصوات"** هو **أبو الفتح عثمان بن جنّي** (**ت 392 هـ**) في كتابه **"سرّ صناعة الإعراب"**، مسهماً في ازدهار البحث الصّوتي في نهاية القرن الرّابع الهجري؛ وهذا حين ربطه بالموسيقا ممثّلة بالنّاي والعود في صناعة الصّوت والنّغم، لبيان كيفيّة حدوث الأصوات، يقول: "... **ولكن هذا القبيل من هذا العلم، أعني علم الأصوات والحروف له تعلّق ومشاركة للموسيقا لما فيه من صنعة الأصوات والنّغم... شبه بعضهم الحلق والفم بالنّاي، فإنّ الصّوت يخرج فيه مستطيلاً أملس ساذجاً... فإذا وضع الزّامر أنامله على خُرق النّاي المنسوقة، وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسُمع كلّ خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، ونظير ذلك أيضاً وتر العود، فإنّ الضّارب إذا ضربه، وهو مُرسَل سمعتَ له صوتاً، فإنّ حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه أدّى صوتاً آخر، فإن أدناه قليلاً سمعت غير الإثنين**". (ابن جني، صفحة 9)

ويدل هذا الكلام دلالةً قاطعةً على أنّ **ابن جنّي** كان صاحب خبرة بفنّ الموسيقا وبطريقة استخدام الآلات الموسيقيّة في التّمييز بين الأصوات والأنغام، وتشبيهها من حيث المخارج بالفم والحلق كآلتي (**النّاي والعود**). وهو بهذا الصّنيع يكون في مقدّمة كتابه قد جعل من علم الأصوات علماً مستقلاًّ عن كتب النّحو والمعاجم، بعد أن كانت تُعالج ظواهره في مقدّماتها ومداخلها، على غرار **"العين"**، و**"الجمهرة"**، (فضل، صفحة 53) أو ما جاء به بعض علماء اللّغة، ومنهم: **قطرب** (**ت 206 هـ**)، **والأخفش سعيد بن مسعدة** (**ت 211 هـ**)، **والأصمعي** (**ت 213 هـ**). (ابن الندم، د.ت، الصفحات 53-54)

وتوالت الدّراسات الصّوتيّة، بعد هؤلاء العلماء، لتنضاف إلى إرهاصات المنجز الصّوتي عند العرب؛ فهذا **ابن سينا** (**ت 428 هـ**) أفاد من خبرته الطّبيّة، فألّف رسالة بعنوان **"أسباب حدوث الحروف"**، عالج فيها أصوات اللّغة العربيّة معالجة الطّبيب المشرّح، في عرضٍ متميّزٍ، ووصفٍ دقيقٍ لجهاز النّطق، كالحنجرة واللّسان، وقد مكّنه هذا العمل التّشريحي في رسالته المقسّمة إلى مقدّمة وستّة فصول، من معرفة ماهيّة الحروف والأصوات، وأسباب صدورها وحدوثها، ومخارجها ومحابسها، وأثر الهواء فيها، ناهيك عن مقارنة بين أصوات اللّغة العربيّة وحروف مسموعة من لغات أخرى كاللّغة الفارسيّة، وأصوات تصدر عن حركات غير نطقيّة. (سينا، 1983، صفحة 93)

كما كان **للزمخشري** (**ت 538 هـ**) في **"المفصل"**، **وابن يعيش** (**ت643هـ**) في **"شرح المفصل"**، **والسكاكي** (**ت 626 هـ**) في مقدّمة **"مفتاح العلوم"**، وغيرهم... آثار واضحة في الدّرس

الصّوتي، منها ما هو مكرور، ومنها ما هو مضاف، تجلّت في ابتداع المصطلحات الصّوتيّة، والحديث عن مخارج الحروف والأصوات، وأعضاء النّطق في الجهاز التّصويتي. (السامرائي، 2011، صفحة 20)

ولا يفوتنا أن ننوّه بما قدّمه القرآن الكريم للمنجز الصّوتي العربي من ظواهر صوتيّة؛ إذ كان، وما يزال، الحافز الأساس على النّهوض بها، لتقديم قراءة صحيحة، وترتيل سليم له. والتّرتيل هنا ضرب من التّجويد عند **"الإمام علي"**، في قوله: **"التّرتيل تجويد الحروف ومعرفة الوقوف"**، (ابن الجزري، صفحة 225) وهو كذلك عند **ابن مسعود "جوّدوا القرآن"**. (السيوطي، الاتقان في علوم القران، صفحة 132)

وهكذا أصبح حسن الأداء في تلاوة القرآن فرضاً (ابن الجزري، صفحة 211)، وبات للأداء نفسه أصول صوتيّة، منها ما يتطلّبه تحسين التّلاوة: (**كالغنّة، والقلقلة، والإخفاء**...) ومنها ما استبدّ بلسان القارئ من عادات لهجيّة في القراءة، من قبيل: (**الهمز، والإمالة، والتّفخيم**...). (ابن الجزري، الصفحات 26-27)

وهناك أصول أخرى رُويت عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم، والصّحابة ممارسة صوتيّة دون أن يضعوا لها مصطلحات تُعرف بها: **"كالإدغام، والرّوم، والإشمام، ومنها ما عُرف بمصطلحه العلمي الذي استقرّ فيما بعد، نحو: الهمز، والإمالة، والوقف، والمدّ"**، (بوروبة، 1989، صفحة 13) ثمّ أصبحت هذه المصطلحات، فيما بعد، تشكّل، بحكم الاستعمال، أسس المنجز المصطلحي الصّوتي عند العرب.

3. خاتمة:

وصفوة القول، فقد كان لا بدّ من هذه القراءة في المنجز الصّوتي عند العرب، لمعرفة الإرهاصات الأولى التي أسّست له، وهذا على هدي مقاربة تاريخيّة صوتيّة، تتعقّب منهجيّاً بالتّحليل والتّعليل أهمّ المقبوسات التي انطوت على ظواهر صوتيّة، دأب علماء اللّغة العرب في معالجتها على النّطق والسّماع، واعتماداً على خبرة القرّاء بتعدّد اللّهجات العربيّة. ثمّ أخذ هذا المنجز الصّوتي ينمو ويتطوّر على أيدي فقهاء اللّغة في القراءة، والرّواية، والنّحو، والصّرف، والبلاغة؛ ليشمل بالجمع، والدّراسة، والتّأليف مختلف الفروق الصّوتيّة في لغات العرب ولهجاتهم، تمهيداً لعلم الأصوات الذي يعود السّبق فيه إلى روّاده كالخليل، وسيبويه، وابن جنّي، وابن سينا، وغيرهم من الذين أبلو بلاء حسناً في تفسير معظم الظّواهر الصّوتيّة. كما

كان القرآن الكريم مكسباً ملهماً للمنجز الصّوتي عند العرب، حين أغناه بأهمّ المصطلحات المتعلّقة بعلامات الضّبط، وأحكام القراءة والتّجويد، وهذا على الرّغم من انعدام الوسائل العلميّة والتّكنولوجيّة المساعدة، من أجهزة آليّة ومخابر صوتيّة، ومع ذلك استطاع هؤلاء الرّواد تقديم منجز صوتي في غاية الأهمّية، نستطيع أن نستنبط منه نتائج رائدة نذكر منها ما يأتي:

1- وضع أبجديّة صوتيّة للحروف العربيّة، انتهت بتسعة وعشرين صوتاً حسب ترتيب سيبويه، وهي : ء، أ، هـ، ع، ح، غ، خ، ك، ق، ض، ج، ش، ي، ل، ر، ن، ط، د، ت، ص، ز، س، ظ، ذ، ث، ف، ي، م، و.

2- الاهتداء بالخبرة الصّوتيّة إلى معرفة أعضاء النّطق في الجهاز التّصويتي، من : رئة، وقصبة هوائيّة، وحنجرة، وحلق، ولهاة، وحنك أدنى وأعلى، وأنف، وخيشوم، ولسان، وأسنان، وثنايا، وشفتين.

3- تحديد مخارج الأصوات، فهي عند الخليل ثمانيّة مخارج، وعند سيبويه ستّة.

4- تصنيف الأصوات إلى : مجهورة، ومهموسة، وشديدة، ورخوة، ومطبقة ومنفتحة.

5- تقسيم الحروف إلى صحيحة ومعتلّة، وتقسيم أصوات العلّة إلى قصيرة، وهي: الكسرة، والفتحة، والضمّة، وحروف المدّ الطّويلة: الألف، الواو، الياء.

6- إنّ للهواء المتدفّق في مجراه، والمتموّج في مسلكه أثراً في إنتاج الأصوات وحدوث الحروف، وهذا ما بيّنه ابن جنّي وابن سينا.

7- محاولة إثبات العلاقة بين الحرف والدّلالة، أو بين الصّوت والمعنى، وهذا ما اجتهد فيه ابن جنّي في. أبواب : تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني، وتصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، وإمساس الألفاظ أشباه المعاني.

8- وهناك تخريجات وتعليلات أخرى تتعلّق بنظريّة (الفونيم) في استبدال حرف بآخر لإعطاء معنى آخر، في الكلمات المتشابهة صوتيّاً، مثل كلمتي (**نفر ونفق**) ، وفي الكلمة التي استشهد بها ابن جنّي (**صعد وسعد**) ، ناهيك عن بعض التّعليلات لبعض الظّواهر الصّوتيّة التي ترد في سياق الحديث، لتوفير تناغم صوتي، وتسهيل في عمليّة النّطق، كالإدغام والإبدال، وكلّ هذا له مقابلات في المفاهيم والمصطلحات في اللّسانيّات الحديثة كالاقتصاد في الجهد الصّوتي العضلي، أو المماثلة والمخالفة. وهذا ما يدلّ دلالة قاطعة على غنى المنجز الصّوتي عند العرب.

4. قائمة المراجع:

1. ابراهيم عبود السامرائي. (2011). *المصطلحات الصوتية بين القدماء و المحدثين*. عمان: دار جرير.
2. ابن سينا. (1983). *اسباب حدوث الحروف*. مطبوعات مجمع اللغة.
3. ابن مجاهد. (د.ت). *السبعة في القراءات*. مقدمة المحقق.
4. ابو الحسن ابن فارس. (1910). *الصاحبي في فقه اللغة*. القاهرة: المكتبة السالفية.
5. ابو الطيب اللغوي، و عبد الواحد بن علي. (د.ت). *مراتب النحويين*. القاهرة: مطبعة نهضة مصر.
6. ابو الفتح عثمان ابن جني. (1985). *سر صناعة الاعراب*. دمشق: دار القلم.
7. ابو الفرج الاصفهاني. (1958). *الاغاني*. بيروت: دار الثقافة.
8. ابو زرعة عبد الرحمن ابن زنجلة. (1982). *حجة القراءات*. بيروت: مؤسسة الرسالة.
9. الحسن بن عبد الله العسكري. (1908). *كتاب التصديق و التحريف وشرح ما يقع في التاليف*. القاهرة: مطبعة الظاهر.
10. ابو الحسن ابن فارس .(د.ت.) *مقاييس اللغة* .ايران :دار الكتب العلمية.
11. الخليل بن احمد الفراهيدي. (1980). *كتاب العين*. وزارة الثقافة و الاعلام العراقية.
12. المهدي بوروبة. (1989). المصطلحات الصوتية عند النحاة و اللغويين العرب . *رسالة ماجستير* . قسم اللغة و الادب، سوريا: جامعة حلب.
13. توفيق شاهين. (1980). *علم اللغة العام*. الاسكندرية: مكتبة وهبة.
14. جلال الدين السيوطي. (د.ت). *الاتقان في علوم القران*. بيروت: دار المعرفة.
15. جلال الدين السيوطي. (د.ت). *المزهر في علوم اللغة وانواعها*. دمشق: دار الفكر.
16. زكريا بن محمد الانصاري. (1980). *الحقائق المحكمة في شرح المقدمة الجزرية*. دمشق: مطابع الف باء الاديب.

17. طاش كبرى زادة. (د.ت). *مفتاح السعادة ومصباح السيادة*. حيدر ابار الهند: دار المعارف النظامية.

18. عاطف محمد فضل. (2013). *الاصوات اللغوية*. عمان: دار المسيرة.

19. عبد الله بن مسلم ابن قتيبة. (1366). *الشعر والشعراء*. القاهرة: دار احياء الكتب العربية.

20. عبده الراجحي. (1997). *فقه اللغة في الكتب العربية*. بيروت: دار النهضة العربية.

21. علي بن مؤمن الاشبيلي، و عصفور ابن. (1978). *الممتع في التصريف*. بيروت: دار الافاق الجديدة.

22. عمرو بن بحر الجاحظ. (1988). *البيان و التبيين*. القاهرة: مكتبة الخانجي.

23. عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه. (د.ت). *الكتاب*. بيروت: عالم الكتب.

24. مجد الدين ابن الاثير. (1963). *النهاية في غريب الحديث*. القاهرة: دار احياء الكتب العربية.

25. محمد بن اسحاق ابن الندم. (د.ت). *الفهرست*. بيروت: مكتبة الخياط.

26. محمد بن اسماعيل البخاري. (1379). *الادب المفرد*. القاهرة.

27. محمد بن محمد الدمشقي ابن الجزري. (د.ت). *النشر في القراءات العشر*. بيروت: دار الكتب العلمية.

28. محمد بن يزيد المبرد. (1985). *الكامل في اللغة و الادب*. بيروت: مؤسسة المعارف.

29. مختار عمر احمد. (1982). *البحث اللغوي عند العرب*. القاهرة: عالم الكتب.

30. مكي بن ابي طالب القيسي. (1979). *الابانة عن معاني القراءات*. دمشق: دار المامون للتراث.

31. نايف خرما. (1978). اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة. *المجلة الثقافية* (عدد 09).

32. نصر محمد مكي. (1308). *نهاية القول المفيد في علم التجويد*. مصر: المطبعة الاميرية بولاق.

33. نور الدين عصام. (1997). *علم الاصوات العربية*. جامعة القدس المفنوحة.

34. يحي بن زياد الفراء. (1955). *معاني القران*. بيروت: عالم الكتب.